عندما تصبح الاستدامة قابلة للقياس

إطار محاسبي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا





محمد الحطاب،

ماجستير في المحاسبة، كلية الإدارة والاقتصاد – جامعة قطر

إشراف: أ.د. غسان هاني ماردیني،

أستاذ المحاسبة، كلية الإدارة والاقتصاد – جامعة قطر

تواجه منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تحديًا بيئيًا مزدوجًا؛ فهي من أكثر مناطق العالم تأثرًا بندرة المياه وتغير المناخ، وفي الوقت نفسه تمتلك فرصًا كبيرة للتحول نحو الطاقة المتجددة وإدارة الموارد بصورة أكثر كفاءة. لكن السؤال الأهم لا يتعلق بوجود هذه التحديات فحسب، بل بكيفية تحويلها إلى معلومات واضحة وقابلة للقياس تساعد الحكومات والشركات والمجتمع على اتخاذ قرارات أفضل. هنا يأتي دور المحاسبة، ليس بوصفها أداة لحساب الأرباح والخسائر فقط، بل كلغة قادرة على تنظيم الواقع البيئي وترجمته إلى مؤشرات ومسؤوليات ونتائج.

في بحثنا المنشور حول تأطير المحاسبة البيئية للاستدامة في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، نقترح إطارًا نظريًا يربط بين المحاسبة والاستدامة من خلال فكرة جوهرية: لا يمكن إدارة ما لا يمكن قياسه. فالكثير من تقارير الاستدامة في المنطقة ما زال يعتمد على السرد العام، أو على الإفصاح الاختياري، أو على إبراز مبادرات إيجابية دون ربطها دائمًا بمؤشرات قابلة للمقارنة أو بمخرجات محاسبية واضحة. ومن ثم، فإن الحاجة لم تعد تقتصر على نشر تقارير أكثر، بل على تطوير طريقة أكثر دقة لفهم ما الذي يجب قياسه، ومن المسؤول عن البيانات، وكيف يمكن تحويل هذه البيانات إلى قرارات.

يركز الإطار المقترح على أربعة أبعاد بيئية رئيسية تعكس واقع المنطقة: ندرة المياه، والانبعاثات الكربونية، والطاقة المتجددة، وممارسات الاقتصاد

الدائري. هذه الأبعاد ليست قضايا بيئية منفصلة، بل ترتبط مباشرة بالأمن الغذائي، وكفاءة الطاقة، والتخطيط الحضري، والاستثمار، والحوكمة، وقدرة المؤسسات على الاستجابة للمخاطر المستقبلية. لذلك، يسعى الإطار إلى جعل هذه القضايا «قابلة للحساب» من خلال تحديد البيانات ذات الصلة، وتنظيمها، ثم تحويلها إلى مخرجات تساعد في صُنع القرار.

يقوم الإطار على ثلاث مراحل مترابطة. تبدأ المرحلة الأولى بعزل الظاهرة البيئية المراد قياسها؛ مثل استهلاك المياه أو حجم الانبعاثات أو كمية النفايات. بعد ذلك تأتي مرحلة التحويل، حيث تُنظم هذه البيانات باستخدام أدوات محاسبية مثل المحاسبة عن رأس المال الطبيعي، التي تساعد على تقييم حالة الموارد، وتحليل المدخلات والمخرجات، الذي يوضح حركة الموارد والطاقة والنفايات داخل الأنظمة الاقتصادية. أما المرحلة الثالثة فهي استخراج النتائج، من خلال تقارير ومؤشرات ولوحات أداء تساعد صُنّاع القرار على فهم الصورة الكاملة لاستخدام الموارد وأثرها.

تكمن أهمية هذا الإطار في أنه لا يتعامل مع الاستدامة باعتبارها مفهومًا عامًا أو شعارًا مؤسسيًا، بل يحولها إلى نظام معلومات. فعندما تُقاس المياه بوصفها موردًا طبيعيًا محدودًا، يصبح من الممكن تقييم كفاءة استخدامها في الزراعة والصناعة والمدن. وعندما تُصنَّف الانبعاثات الكربونية وتُربط بالأنشطة الاقتصادية، يصبح من الممكن تحديد مصادرها ووضع استراتيجيات للحد منها. وعندما تُقاس الطاقة المتجددة من خلال الطاقة المنتجة والانبعاثات المُتجنَّبة، يمكن ربط الاستثمار الأخضر بالعائد البيئي والاقتصادي. كما أن قياس تدفقات المواد والنفايات يساعد على دعم الاقتصاد الدائري وتقليل الهدر.

ولا يقتصر الإطار على الشركات وحدها، بل يعتمد على منظومة أوسع تشمل وزارات البيئة، والهيئات الإحصائية، والجهات التنظيمية، والشركات، والمجالس الإقليمية. فالتقارير البيئية الدقيقة تحتاج إلى بيانات موثوقة، ومعايير مشتركة، وتعاون بين المؤسسات. وهذا التعاون ضروري لأن قضايا الاستدامة لا تتوقف عند حدود الشركة أو الدولة؛ فالمياه، والانبعاثات، والطاقة، والنفايات كلها قضايا عابرة للقطاعات وتتطلب تنسيقًا واسعًا.

يقدم البحث رسالة أساسية مفادها أن المحاسبة يمكن أن تكون جزءًا من الحل البيئي في المنطقة. فبدلاً من النظر إليها باعتبارها ممارسة مالية تقليدية، يمكن توظيفها كأداة لقياس الاستدامة وربطها بالسياسات العامة والاستراتيجيات المؤسسية. وبذلك تتحول المحاسبة إلى جسر بين الأهداف العالمية، مثل أهداف التنمية المستدامة، والواقع المحلي لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

ومع ذلك، فإن تطبيق هذا الإطار يحتاج إلى مواجهة تحديات عملية، مثل تفاوت القدرات المؤسسية بين دول المنطقة، وضعف توحيد البيانات، واختلاف أنظمة الإفصاح. لكن هذه التحديات لا تقلل من أهمية الإطار، بل تؤكد الحاجة إلى تطبيق تدريجي يبدأ بمؤشرات أساسية، ثم يتوسع مع تطوُّر البيانات والقدرات التنظيمية.

إن الاستدامة في منطقتنا لا تحتاج فقط إلى طموح، بل إلى أدوات قياس ومساءلة. ومن خلال هذا الإطار، يمكن للمحاسبة أن تساعد في جعل التحديات البيئية أكثر وضوحًا، والقرارات أكثر دقة، والمستقبل أكثر استدامة.

للاطلاع على البحث،

يرجى مسح رمز الاستجابة السريعة: